

ابن تيمية والدفاع عن الإسلام

٦٦١ - ٧٢٨ هـ

د. محمد بن سعد الشويعر *

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق
الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:
فإن الله جلت قدرته أثنى على أمة محمد ﷺ، ووصفهم بالخيرية في
قوله سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (١).
فصفات الخيرية التي مدحت بها أمة الإسلام، وفقاً للنص الكريم في
هذه الآية، لا تتم إلا إذا تحققت أمور ثلاثة:

١ - الأمر بالمعروف .

٢ - النهي عن المنكر .

٣ -- وركيزة ذلك الإيمان بالله .

وكل واحد من هذه الأمور الثلاثة يتطلب: عقيدة قلبية، وصدقاً في
العمل، واحتساباً لما عند الله، وصبراً في سبيل ذلك .. مع العلم والبصيرة .
والدعاة والعلماء المخلصون في هذه الأمة، يحرصون على التحلي بذلك،
عند دعوتهم إلى الله؛ تمسكاً بكتابه الكريم، فهماً وعملاً، واتباعاً لسنة رسول
الله ﷺ، حيث كانت وصيته عليه الصلاة والسلام في آخر حياته لأصحابه،
وهي وصية خاصة لهم؛ لأنهم أول من تحمل الأمانة عن رسول الله، في تبليغ

* سبقت ترجمته في العدد التاسع من مجلة البحوث الإسلامية ص ٢٨٩.

(١) سورة آل عمران، من الآية ١١٠ .

شرع الله، وعامة للأمة بعدهم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، دعوة، وتمسكاً، وصدوراً عنها في كل أمر ونهي؛ لأنها من أفضل الأعمال، ووظيفة أنبياء الله من قبل.

وقد أخبر ﷺ أن كل فرد من أبناء الإسلام على ثغر من ثغور الإسلام، فالله أن يوتي الإسلام من قبله، كالحارس الذي يُوكّل إليه شيء يحفظه، فإنه يحاسب ويجازى إذا فرط فيه، أو كان سبياً في نفاذ العدو عن طريقه.

وإن الإسلام علاوة على كونه امتثالاً لأوامر الله جل وعلا، واتباعاً لمنهج رسول الله ﷺ في أداء العبادات: الفعلية، والقولية، والاعتقادية، فهو أمانة في الحرص على طلب العلم الشرعي، مع الحرص على سلامة مآخذه ومداخله، والبعد عن الأمور التي يريد الجهال وأعداء الله، وأعداء رسوله، إدخالها فيه، كما أن هذا العلم أمانة في حسن التبليغ للناس، وتبصيرهم بما أوجب الله عليهم.

فبنوا إسرائيل لما قصرُوا في هذا الجانب، وحولوا أوامر الله إلى رغبات شخصية، ومطامع دنيوية، عاقبهم الله، وفضحهم الله في القرآن الكريم بنماذج من أفعالهم، وما ترتب عليها من عقاب، فهي لهم ولن عمل مثل عملهم، كما روي عن سفيان الثوري رحمه الله، في قوله: (من فسد من علماء المسلمين، ففيه شبه باليهود، معهم علم ولم يعملوا به، ومن فسد من عبّادهم، ففيه شبه بالنصارى، يعبدون الله على جهل وضلال).

ومن الأعمال الكثيرة التي أبانها القرآن، نورد مثالين فقط:

المثال الأول: يقول الله ﷻ في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١). فهذه الآية توضح أن سنة

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٧.

الله ﷻ في خلقه، اقتضت إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأن الناس بعد الرسل عليهم أمانة التبليغ والإيضاح، وتحري الصدق، وعدم كتمان شرع الله، أو تحريفه أو تبديله، وأن يكون المقصد ابتغاء ما عند الله، بالدعوة والتبليغ، لا مكاسب الدنيا، من مال وجاه، أو رياء أو غير ذلك.

فخان أهل الكتاب هذا الميثاق، واستحقوا بذلك غضب الله ومقته؛ لأنهم عدلوا في شرع الله، حسب ما تصبوا إليه أنفسهم، واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون.

ومن قصر من هذه الأمة عن أداء حق الله في تبليغ دعوته، وتعليم الناس أمور دينهم، أو غلب دنياه وهواه على أمر الله، فإنه يكون ممن سلك طريقة أهل الكتاب، في تعمد المخالفة لما أمر به، وفي الإخلال بميثاق الله الذي أخذ على أهل العلم، في وجوب بيانه، وعدم كتمان، ألم يقل ﷻ في سورة الزخرف في إبانة الدور المطلوب في إبلاغ أمانة الله إلى عباد الله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ • وَسَأَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَنْ رُسُلُنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ (١).

وتأتي أهمية نشر العلم، والحرص بمجد واجتهاد على تبليغه، من العمق في فهم نصوص شرع الله، وإدراك المسؤولية المناطة بأعناق العلماء في أداء الواجب المفروض عليهم، لعل الله أن يخفف مسؤولية السؤال، وأن يقلل العثرات.

والمسؤولية تبدأ بالنفس أولاً؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢)، إذ أساس الدعوة: القدوة الصالحة، وركيزة العلم: العمل؛ لأن العلم بلا عمل، كشجر بلا ثمر.

ثم على الإنسان واجب البدء بمن حوله، يقول ﷻ في توجيه كريم للفتة

(١) سورة الزخرف، الآيتان ٤٤، ٤٥.

(٢) سورة الصف، الآية ٣.

المؤمنة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَأَنْفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (١).

ثم تأتي مرتبة التعليم والدعوة، بحسب القدرة العلمية، وذلك بتعليم الناس أمور دينهم، وتوجيههم إلى ما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم؛ لأن العلماء هم ورثة الأنبياء، فالأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذه بحقه، وحق العلم تبليغه وتعريف الناس به، وقد أمر كل فرد في البيئة الإسلامية بالسؤال عما ينقصه في الأمور الدينية، فقال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢).

المثال الثاني: يقول سبحانه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ • كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ • تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٣).

فهذه الآيات الكريمة، يستفاد منها أن بني إسرائيل، قد استحق منهم اللعن - وهو الطرد من رحمة الله - الذين كفروا بعصيانهم، واعتدائهم على حرمات الله؛ مما أمت عندهم الإحساس بما يجب عليهم عمله، فأضاعوه، وأغضبوا الله بذلك العمل، فطمس الله على قلوبهم فكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، وكانوا يتولون الذين كفروا ويحبونهم من دون الله، وكانت وجوههم لا تتمعر غضباً لله ﷻ.

قال ابن كثير في تفسيره: (قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنوا

(١) سورة التحريم، الآية ٦.

(٢) سورة النحل، من الآية ٤٣.

(٣) سورة المائدة، الآيات ٧٨ - ٨٠.

إسرائيل في المعاصي نهتهم علماءهم فلم يتهوا، فجالسهم في مجالسهم - قال راوي الحديث: وأحسبه قال: «في أسواقهم»- وواكلوهم، وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ «وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس، فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تطروهم على الحق أطراً» .

وفي رواية أبي داود من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل: كان الرجل يلقي الرجل، فيقول: يا هذا، اتق الله، ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقيه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه، وقعيده، فلما فعلوا ذلك؛ ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، إلى قوله: ﴿فَدَسِقُوا﴾. ثم قال: «كلا والله، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو تقصرنه على الحق قصراً»^(١).

وأمة محمد ﷺ سيكون فيها الخير إلى يوم القيامة، ماداموا يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويدعون إلى الله، عن إيمان وعقيدة، وما دام فيهم علماء يوضحون لهم الحق، ويأعدونهم عن كل ما يخالف شرع الله؛ لأن الأمر والنهي، والدعوة لا بد أن تكون عن حلم وعلم، وعن بصيرة وعقل.

وقد هيا الله بين الفينة والفينة في صفوف هذه الأمة، وفي كل مكان رجالاً عرفوا دين الله بالعلم الذي سلكه الله في قلوبهم، وتمسكوا نتيجة لذلك بما جاء في كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله ﷺ، فحرصوا على تجديد الدين للأمة، كلما غلب على أفراد منها الجهل، واهتموا بالإرشاد، وإعادة الغافل إلى

(١) تفسير ابن كثير، دار التراث - ط ١٤٠٠هـ، ج ٢ ص ٨٢-٨٣.

جادة الصواب؛ لأن الدعوة إلى الله كالغذاء للجسم لا بد من الاستمرار عليه، والداعي المتبصر هو الذي يتحول الناس بالنصيحة، مثلما كان رسول الله ﷺ يتحول أصحابه بها .

وهؤلاء العارفون هم الذين أخبر ﷺ عنهم بأنهم يجددون على رأس كل قرن للأمة دينها، فهم دعاة خير وفلاح، يطلبون ما عند الله من الأجر المدخر؛ لقاء ما يحرصون عليه من تبليغ وإرشاد وتعليم، لما منحهم الله من علم، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر؛ امتثالاً لما أمروا به بالنص الشرعي، في مثل هذا القول الكريم: قالت عائشة رضي الله عنها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم» رواه الترمذي.

وروى الإمام أحمد بسنده إلى عدي بن عميرة، رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونها، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة» .

ولذا فإن مثل هؤلاء العلماء، هم الذين يتحملون في سبيل المنفعة عن دين الله الشيء الكثير، كما حصل لشيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام أحمد بن حنبل، وغيرهما من علماء المسلمين، في كل زمان ومكان.

ومن فضائل هذه الأمة كما أخبر ﷺ في حديث ثوبان أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» رواه الترمذي ومسلم وأبو داود.

وعلماء الإسلام الذين يعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، نموذجاً لهم، قد عرفوا فلزموا، وأدركوا نقاط الضعف التي دبّت في الأمة نتيجة الجهل، فأوقفوا أنفسهم للذود عن حياض الدين، ولتجديد ما بدأ يندرس من تعاليم شرع الله وسنة رسوله ﷺ، نصحاً للأمة، وأداءً للواجب في الأمانة، وقد لقوا

في هذا السبيل ما الله به عليم، فصبروا وصابروا؛ لأنهم قدوة، ولا يريدون وراء ذلك شهرة أو مكسباً دنيوياً .

وقد نفع الله بعلمهم، وبصمودهم أمام كل محدثة في دين الإسلام، فذهب خصومهم، وبقيت أعمالهم شاهدة على صدقهم، وحسن مقاصدهم، ولإدراك من جاء بعدهم أنهم مصايح يهدي الله بهم الساري على طريق الدعوة عندما تختلط المعالم، وتباين الآراء، وقد نفع الله بعلمهم وآرائهم، بعد مماتهم، أكثر مما تم في فترة نقاشهم وحوارهم مع غيرهم في حياتهم؛ لأنهم تركوا علماً كثيراً ينتفع به، ويزيل الشبهات ويفند البدع المحدث في الأزمنة المتعاقبة.

ونموذج ابن تيمية رحمه الله - قبله وبعده - بحمد الله كثير في سجلات أمة الإسلام، وهذا من نعم الله بعباده، ومن حفظه سبحانه للدين، الذي اختاره سبحانه ليكون خاتمة الرسالات، وبعث به أفضل خلقه محمد بن عبد الله ﷺ، أفضل الأنبياء والمرسلين وخاتمهم.

وهؤلاء الدعاة والعلماء، هم حماة دين الله، والمجددون له في كل عصر ومصر؛ لأن الله آتاهم فقهاً في الدين، وقوة في الإيمان والعلم، يقول ﷺ في حديث أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله، عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ولا تزال عصاة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوهم إلى يوم القيامة».

وحيث إن حياة شيخ الإسلام: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، حافلة بالأعمال الجليلة، فقد أوقف نفسه للدفاع عن الإسلام: دعوة إلى الله، وتصحيحاً لعقيدة المسلمين، وقمعاً للبدعة، وما ذلك إلا أن العقيدة هي المدار في الأعمال، كالحجور الذي تدور عليه البكرة، فإن سلمت العقيدة سلم العمل، وإن أصابها الخلل تأثر العمل كله، والله جل وعلا يقول في الحديث القدسي: «من

عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه». ومصدق ذلك من كتاب الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾^(١). فهو سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك، وطيب لا يقبل من الأعمال إلا ما كان طيباً.

وحديثنا المختصر هذا عن ابن تيمية، سيلّم بشيء من هذا الجانب، لمكانته رحمه الله، ولأن أعماله الجليلة، وضحت سلامتها للناس بعد وفاته، حيث وقف الخصوم ضده، وأوقفوا به من المكائد والظلم والسجن والافتراء عليه، ما الله به عليم.

والمسلمون كلما عادوا إلى عقيدة الإسلام الصافية النقية، كما جاء بها الرسول ﷺ، وسار عليها أصحابه من بعده، ثم السلف الصالح من هذه الأمة، كلما أدركوا فضل العلماء المخلصين، الذين سار شيخ الإسلام ابن تيمية على منهجهم في الدعوة، وترسم خطاهم في الدفاع عن حمى الإسلام، وحرصه رحمه الله في التصدي للشبهات التي يضعها المغرضون، ويتلقاها عنهم الجهلة بحماسة، ودون روية أو تبصر.

وفي عصرنا الحاضر كثر اهتمام الجامعات في البلاد الإسلامية بدراسة حياة الشيخ ابن تيمية وآثاره وجهوده الدعوية، واهتمامه الراسخ بحماية جناب التوحيد.

كما سلّط الضوء على مناقبه رحمه الله، وسعة معارفه العلمية والفنون التي ألّف فيها، والدفاع عنه إذ يعتبر ما ألّف وألّف عنه مكتبة متكاملة .

وآخر ما سمعت عن مكانته أن مؤتمراً أقيم في جامعة (بنارس) بالهند حظي بدراسات عديدة، وندوة علمية دعوية في مدينة لوس أنجلوس بالولايات المتحدة الأمريكية، باسم ابن تيمية، بمناسبة إنشاء مركز إسلامي للبحث والدعوة في ولاية كاليفورنيا، التي عاصمتها هذه المدينة القصية في الدنيا .

(١) سورة النساء، من الآية ٤٨ .

بل إن فتحاً جديداً اتسع نطاقه، إذ في كثير من الديار التي كان أبنائها وبعض من ينتسب منهم للعلم يحاربون منهج ابن تيمية، وتلاميذه، ويخطئونهم في منهج الدعوة، وفي فكر ابن تيمية التصحيحي للعقائد، ومحاربة البدع، أصبح أبناء أولئك يتلقفون كتب ابن تيمية، ويحرصون على متابعة وجهات نظره في تطهير العقائد، وفي حرصه على الدفاع عن جوهر الإسلام، وتعاليمه الصافية، ألا وهو العقيدة التي تربط المسلم بربه وجدانياً، وعلمياً، مع حرصه على نقاوة العمل، بمحاربة البدع التي حرص أعداء الإسلام على بثها في المجتمع الإسلامي، مع الجهل وحب التقليد، والرغبة في متابعة الأمم الأخرى بدون علم أو تبصر، مع أن رسول الله ﷺ قد نهى عن اتباع سنتهم.

من هو ابن تيمية ؟

لم يقيض الله للداعية إسلامي، من الاهتمام والدراسة بمثل ما قيض سبحانه لشيخ الإسلام ابن تيمية: تعريفاً، وتأليفاً، ومتابعة لما صدر عنه من كتب ورسائل، واهتماماً من خصومه، حيث يجد المتابع لترجمة حياته التي صدرت في أكثر من أربعين مصدراً قديماً، علارة على الدراسات الحديثة التي تدافع عما تناوله الخصوم لهذا المجاهد بلسانه وقلمه، ونفسه وماله، هو وتلاميذه في كل زمان ومكان، وحتى يومنا هذا .

فما زاده الله بتجريح الخصوم إلا شرفاً واتساع سمعة، إذ بقيت آراؤه المدعمة بالدليل العقلي والنقلي ترد على كل قدح يوجه إليه، كما هيأ الله لهذا الشيخ من يعرف قدره، ويدرك سعة علمه، ليزب عنه، بين وقت وآخر، عرفاناً بمكانته، ومتابعة لآثاره، ونشراً لكتبه، بعد الاستيعاب التام لآرائه التي استملها من معارفه المتعددة، كما وصفه المترجمون لحياته .

وكان من أوفى من ترجم له، الصفدي في كتابه: (الوافي بالوفيات)، حيث نجح في تلك الترجمة قوله:

(هو أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم

الحراني بن تيمية، الشيخ الإمام، العالم العلامة، المفسر، الفقيه، المجتهد، الحافظ، المحدث، شيخ الإسلام، نادرة عصره، ذو التصانيف، والذكاء، والحافظة المفرطة، تقي الدين أبو العباس، ابن العالم المفتي شهاب الدين، ابن الإمام شيخ الإسلام، مجد الدين أبي البركات، مؤلف الأحكام، وتيمية لقب لجدّه الأعلى.

ولد بجرّان عاشر ربيع الأول، سنة إحدى وستين وستمائة، وتحول به أبوه إلى دمشق سنة سبع وستين وستمائة، وتوفي عام ثمان وعشرين وسبعمائة. وسمع من ابن عبدالدايم، وابن أبي اليسر، والكمال ابن عبد، وابن أبي الخير، وابن الصيرفي، والشيخ شمس الدين، والقاسم الإربلي، وابن علان، وخلق كثير. وقرأ بنفسه على جماعة، وانتخب ونسخ عدة أجزاء، و(سنن أبي داود)، ونظر في الرجال والعلل، وصار من أئمة النقد، ومن علماء الأثر، مع التدين والتأله، والذكر والصيانة، والنزاهة عن حطام هذه الدار، والكرم الزائد. ثم إنه أقبل على الفقه ودقائقه، وغاص على مباحثه، ونظر في أدلته وقواعده وحججه، والإجماع والاختلاف.

وكان قوَّالاً بالحق، نهّاءً عن المنكر، ذا سطوة وإقدام، وعدم مداراة، ومسائله المفردة يحتج لها بالقرآن والحديث، أو بالقياس، ويرهنها وينظر عليها، وينقل فيها الخلاف، ويطيّل البحث أسوة بمن تقدمه من الأئمة، فإن كان أخطأ فله أجر واحد، وإن كان أصاب فله أجران.

وكان أيضاً، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شَعْرُهُ إلى شحمة أذنيه، كأن عينيه لسانان ناطقان، ربعةً من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوريّ الصوت، فصيح اللسان، سريع القراءة، تعزّيه حِدَّةٌ، ثم يقهرها بحلم وصفح.

توفي محبوساً في قلعة دمشق على مسألة الزيارة، وكانت جنازته عظيمة

إلى الغاية، دفن في دمشق، صلى عليه قاضي القضاة: علاء الدين القونوي^(١).
وقد توسع ابن كثير - رحمه الله - في تاريخه: (البداية والنهاية) في وصف يوم وفاته، وما أبداه الناس من حزن ودعاء في دمشق، ومشاركة البلد بأكملها في تأبينه، رجالاً، ونساءً، وأطفالاً، وذلك في حوادث عام ٧٢٨هـ^(٢).
أما محمد بن شاكر الليثي في كتابه: (فوات الوفيات) فإنه أورد بعضاً من الحكايات عنه، التي تنبئ عن فضله، وسعة علمه، ومن ذلك قوله: (حكى أن ابن تيمية قد شكا إليه إنسان من قتلوا بك الكبير، وكان المذكور فيه جبروت، وأخذ أموال الناس واغتصابها، وحكاياته في ذلك مشهورة، فلما دخل إليه الشيخ، وتكلم معه في ذلك، قال: أنا الذي كنت أريد أجيء إليك؛ لأنك رجل عالم زاهد - يعني: يستهزئ به - فقال له الشيخ: لا تعمل علي دركوان - كلمة مأخوذة عن الفارسية: درجوال، بمعنى: الخداع والحيلة - ثم أردف الشيخ قائلاً: موسى كان خيراً مني، وفرعون كان شراً منك، وكان موسى كل يوم يجيء إلى باب فرعون مرات، ويعرض عليه الإيمان.... وكان قوَّالاً بالحق، نهأً عن المنكر).^(٣)

وقال الزركلي: (ولد في حرّان، وتحول به أبوه إلى دمشق، فنبغ واشتهر. وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها، فقصدها، فتعصب عليه جماعة من أهلها، فسجن مدة، ونقل إلى الإسكندرية، ثم أطلق فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢هـ، واعتقل بها سنة ٧٢٠هـ وأطلق، ثم أعيد، ومات معتقلاً بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته، كان كثير البحث في فنون الحكمة، داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان.
وفي الدرر الكامنة: أنه ناظر العلماء، واستدل وبرع في العلم والتفسير،

(١) الوافي بالوفيات، ١/ ٥٧-٧٤.

(٢) ينظر (البداية والنهاية)، ج ١ ص ١٣٥-١٤١.

(٣) فوات الوفيات، والذيل عليها لمحمد بن شاكر الكبي، تحقيق د. إحسان عباس، ١/ ٧٤، ٧٥.

وأفتى ودرّس وهو دون العشرين^(١) .

مكانته العلمية:

نشأ ابن تيمية، ومخايل الذكاء، وسيماء النجابة بادية عليه منذ حداثة سنه، وأعانه الله على حب العلم؛ لأنه ترعرع في بيت علم، فحتم القرآن صغيراً، ثم أقبل على الفقه والحديث، وقد أعجب به شيوخه في قوة الحافظة والنباهة، ولقد وصفه كل من ترجم لحياته بصفات تدل على مكانته العلمية، حيث جمع كثيراً من العلوم، وتبحر فيها، فهو مفسر وفقه، وهو أصولي ومحدث، وهو ماهر في الحوار والجدل، وهو مفهم للفلاسفة في جداله معهم لسعة مداركه في علم المنطق .

وكبرهان على ما منحه الله من حافظة نادرة، فقد روي أن أول كتاب حفظه في الحديث وهو لا يزال صغيراً: كتاب: (الجمع بين الصحيحين) للحميدي، كما قال الشيخ الحافظ سراج الدين أبو حفص عمر .

وعلى مشاهير عصره - في جميع الفنون - تتلمذ ابن تيمية، حيث قال ابن قدامة حسبما قال الإمام مرعي بن يوسف الحنبلي المتوفى عام ١٠٣٣ هـ، في كتابه: (الكواكب الدرية في مناقب الإمام المجتهد ابن تيمية): وشيوخ ابن تيمية الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ، وسمّع مسند الإمام أحمد بن حنبل مرات، وسمع الكتب الستة الكبار والأجزاء، ومن مسموعاته: معجم الطبراني الكبير، وعني بالحديث، وقرأ ونسخ وانتقى، وتعلم الخط والحساب في المكتب، وحفظ القرآن، وأقبل على الفقه، وقرأ في العربية، وأخذ بكامل كتاب سيبويه حتى فهمه، وبرع في النحو، وأقبل على التفسير إقبالاً كلياً، حتى حاز قصب السبق، وأحكم أصول الفقه، وغير ذلك .

هذا كله وهو - بعد - ابن بضع عشرة سنة، فانبهر الفضلاء من فرط

(١) الأعلام للزركلي، ١/ ١٤٤ .

ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه) (١).

كما قال عنه ابن عبد الهادي: (لا أعلم أحداً من متقدمي الأئمة ولا متأخريها، جمع مثلما جمع ابن تيمية، ولا صنف نحو ما صنف، ولا قريباً من ذلك، مع أن أكثر تصانيفه إنما أملاها من حفظه، وكثير منها صنفه في الحبس، وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب) (٢).

وقد أثنى على منزلته البزار - المتوفى عام ٧٤٩هـ - أي بعد وفاة ابن تيمية بواحد وعشرين سنة - الذي عاصره، وعرفه عن كثب، فنافح عنه في كتابه: (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية)، وأعطاه ما يستحق من العرفان بمكانته، والتقدير لعلمه وفضله، وكان مما قاله عنه: (وقل كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه، وكان الله قد خصه بسرعة الحفظ، وإبطاء النسيان، لم يكن يقف على شيء، أو يستمع لشيء غالباً، إلا ويبقى على خاطره، إما بلفظه أو معناه، وكان العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسائرته).

فإنه لم يكن له مستعاراً، بل كان له شعاراً وداراً، لم يزل آباؤه أهل الدراية التامة، والنقد، والقدم الراسخة في الفضل، لكن جمع الله له ما خرق بمثله العادة، ووقفه في جميع عمره لأعلام السعادة، وجعل مآثره لإمامته أكبر شهادة، حتى اتفق كل ذي عقل سليم، أنه ممن عنى نبينا ﷺ بقوله: «إن الله يبعث على رأس كل مئة سنة، من يجدد لهذه الأمة أمر دينها» (٣). فلقد أحيا الله به ما كان قد درس من شرائع الدين، وجعله حجة على أهل عصره أجمعين.

أما غزارة علومه فمنها:

ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد، واستنباطه لدقائقه، ونقله لأقوال العلماء في تفسيره، واستشهاده بدلائله، وما أودعه الله تعالى فيه من عجائبه، وفنون حكمه، وغرائب نواتجه، وباهر فصاحته، وظاهر ملاحظته، فإنه فيه الغاية التي

(١) الكواكب الدرية، ص ٥٤.

(٢) الإمام ابن تيمية، لعبد السلام حافظ، ص ٦.

(٣) رواه أبو داود في السنن، باب: الملاحم، وفيه: «من يجدد لها دينها».

يُنْتَهَى إليها، والنهائية التي يُعَوَّلُ عليها.

ولقد كان إذا قُرئ في مجلسه آيات من القرآن العظيم، يشرع في تفسيرها، فينقضي المجلس بجملة، والدرس برمته، وهو في تفسير بعض آية منها .
ولقد أُملى في تفسير: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) مجلداً كبيراً، وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٢) نحو خمس وثلاثين كراسة. ولقد بلغني أنه شرع في جمع تفسير لو أتمه لبلغ خمسين مجلداً.

أما معرفته وبصره بسنة رسول الله ﷺ، وأقواله وأفعاله وقضاياه، ووقائعه وغزواته، وسراياه وبعوثه، وما خصه الله تعالى من كراماته ومعجزاته، ومعرفته بصحيح المنقول عنه وسقيمه، وبقية المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم، في أقوالهم وأفعالهم وقضايهم، وفتاويهم وأحوالهم، وأحوال مجاهداتهم في دين الله، وما خُصُّوا به من بين الأمة، فإنه كان رحمه الله، من أضبط الناس لذلك، وأعرفهم فيه، وأسرعهم استحضاراً لما يريد منه، فإنه قل أن ذُكر حديثاً في مصنف أو فتوى، أو استشهد به، أو استدلل به، إلا وعزاه في أي دواوين الإسلام هو، ومن أي قسم من الصحيح، أو الحسن أو غيرهما، وذكر اسم راويه من الصحابة، وقلَّ أن يُسأل عن أثر إلا وبيّن في الحال حاله، وحال أمره وذكره.

ومنها: ما منحه الله تعالى من معرفة اختلاف العلماء ونصوصهم، وكثرة أقوالهم واجتهادهم في المسائل، وما روي عن كل منهم، من راجح ومرجوح، ومقبول ومردود، في كل زمان ومكان، وبصره الصحيح الثاقب الصائب للحق مما قالوه ونقلوه، وعزَّوه ذلك إلى الأماكن التي بها أودعوه، حتى كان إذا سئل عن شيء من ذلك، كأن جميع المنقول عن الرسول ﷺ وأصحابه والعلماء فيه، من الأولين والآخرين، متصور مسطور بإزائه، يقول منه ما شاء

(١) سورة الإخلاص، الآية ١ .

(٢) سورة طه، الآية ٥ .

الله، ويذر ما يشاء. وهذا قد اتفق عليه كل من رآه، أو وقف على شيء من علمه، ممن لم يغطي عقله الجهل والهوى^(١).

أما الواسطي المعروف بابن شيخ الحزاميين المتوفى عام ٧١١هـ فإنه كان من أسرة صوفية متوغلة في الضلال، وأبوه شيخ طائفة كبيرة، ولكنه قد عرف العقيدة الصحيحة لتأثره بابن تيمية تلمذة وقراءة لكتبه، ومتابعة لحالته، وقد ألف كتاباً سماه: (التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار، في الثناء على شيخ الإسلام ابن تيمية، والوصاية به)، فقال بعد أن أوضح حال زمانه، وما فيه من المنكرات: (ومن العجب أن كلا منهم يدعي أنه على دين الرسول ﷺ، حتى كشف الله لنا، ولكم بواسطة هذا الرجل - ابن تيمية - عن حقيقة دينه، الذي أنزله من السماء، وارتضاه لعباده).

واعلموا أن في آفاق الدنيا أقواماً يعيشون أعمارهم بين هذه الفرق، يعتقدون أن تلك البدع حقيقة الإسلام، فلا يعرفون الإسلام إلا هكذا.

فاشكروا الله الذي أقام لكم في رأس السبعمائة من الهجرة من بين لكم أعلام دينكم، وهداكم الله به وإيانا إلى نهج شريعته، ويّسن لكم بهذا النور المحمدي ضلالات العباد وانحرافاتهم، فصرتم تعرفون الزائغ من المستقيم، والصحيح من السقيم، وأرجو أن تكونوا أنتم الطائفة المنصورة، الذين لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، وهم بالشام إن شاء الله تعالى^(٢).

ثم إذا علمتم ذلك، فاعرفوا حق هذا الرجل الذي هو بين أظهركم وقدره، ولا يعرف حقه وقدره إلا من عرف دين الرسول ﷺ وحقه وقدره، فمن وقع دين الرسول ﷺ من قلبه بموقع يستحقه، عرف حق ما قام به هذا

(١) انظر الأعلام العلية، ص ٢٢-٢٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن ٤٥/١٣، والاستسقاء ٥٢١/٢، ومسلم في الإمارة ١٥٢٣/٣، ١٥٢٤، من حديث معاوية رضي الله عنه بلفظ: « لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم وخذلهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس ».

الرجل بين أظهر عباد الله، يُقَوِّمُ معوجَّهم، ويصلح فسادهم، ويلم شعثهم جهد إمكانه، في هذا الزمان المظلم، الذي انحرف فيه الدين، وجهلت السنن، وعهدت البدع، وصار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والقابض على دينه كالقابض على الجمر، فإن أجر من قام بإظهار هذا النور في هذه الظلمات لا يوصف، وخطره لا يعرف .

فشيخكم -أيذككم الله تعالى- عارف بأحكام أسمائه وصفاته الذاتية، فالله الله في حفظ الأدب معه، والانفعال لأوامره، وحفظ حرماته في الغيب والشهادة، وحب من أحبه، ومجانبة من أبغضه وتنقصه، ورد غييته، والانتصار له في الحق . واعلموا -رحمكم الله- أن هنا من سافر إلى الأقاليم - يعني نفسه- وعرف الناس وأذواقهم، وأشرف على غالب أحوالهم، فوالله، ثم والله، ثم والله، لم يُر تحت أديم السماء مثل شيخكم -يعني ابن تيمية- علماً، وعملاً، وحالاً، وخلقاً، واتباعاً، وكرماً، وحلماً في حق نفسه، وقياماً في حق الله عند انتهاك حرماته، أصدق الناس عقداً، وأصحهم علماً، وعزماً، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همة، وأسخاهم كفاً، وأكملهم اتباعاً لنبيه ﷺ (١).

وما ذلك إلا أن مكانة شيخ الإسلام ابن تيمية العلمية، كانت مشار الانبهار لمن عرفه عن كتب، أو تابع مجهوداته العلمية، أو المناظرات التي دارت بينه وبين مناوئيه، فهو موسوعة علمية، إن تحدث أفحم محدثه، وإن ناقش أسكت مناوئته، وإن أُلّفَ غرف من بحر المعرفة، وإن اتجه إلى موضوع أشبعه، وإن جابه عُلّةً اجتمع كان ذلك الشجاع الذي يجهر بكلمة الحق، ولا يخشى في

(١) التذكرة والاعتبار، ص ٤٧-٥٠ .

الله لومة لائم، وإن اعتدي على العقيدة صال ونافح، وقرع الحجة بالحجة، وإن انتهكت السنة المحمدية انتصر لها، وبدأ التطبيق بنفسه، وأظهر الدليل الواضح الذي لا يقبل المداخل، إلا عن تعمد الكذب أو لرغبة الأهواء، وإن أودى في سبيل الله وما يدعو إليه ويدافع عنه صبر واستسلم.

أما إذا تطاول أعداء الإسلام على ديار المسلمين فإن ابن تيمية شجاع في ميدان القتال، مؤثر في الدعوة إلى الجهاد، مقدم عندما يحمى الوطيس، إذ طالما ضرب النموذج بنفسه في كل ميدان، يحاول فيه الأعداء النيل من الإسلام، فهو مجاهد بنفسه، وعلمه، ومنافح بلسانه وقلمه، يترسم خطى الصحابة والسلف الصالح من هذه الأمة في كل أمر.

آثاره العلمية:

إن عالماً يمثل مكانة ابن تيمية، ومجاهداً يمثل حماسه، لجدير بالدراسة والاهتمام، حتى قيل: إنه لم يتزوج طوال عمره، حيث شغله الدفاع عن دين الإسلام، ودفاع الأعداء المتكالبين على ديار الإسلام، ففي الشرق بعدما زحف التار على بغداد، وخربوا قاعدة المسلمين العلمية، وانتهت بذلك الدولة العباسية، اتجهوا صوب الشام، رغبة في الاستيلاء عليها، ثم الزحف على مصر، وفي الغرب قوى الصليبيين تبذل جهودها للتمكن مرة أخرى من الشام، بعد أن انتصر عليهم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وفي الشمال الدولة العثمانية لم ترسخ أقدامها في بلاد الشام، واتجهت قواها إلى التوسع شرقاً وغرباً، وفي الجنوب نرى الجزيرة العربية منبع الرسالة قد أغفلت، فذبّ الجهل في البداوة من جديد، اللهم إلا في الحرمين وبعض الحواضر، حيث يوجد بعض العلماء .

وأما في الوسط حيث يوجد ابن تيمية في الشام، والعز بن عبد السلام في مصر، فإن الحال لم تكن بأحسن من غيرها، حيث دبّ الوهن في النفوس، وانتشرت البدع، وكثر القائلون بغير علم،... في هذه الأجواء المضطربة، والفتن والبدع التي ظهرت، كان لا بد أن يشمر هذا العالم عن ساعديه، ويبذل هذا

المجاهد ما يستطيع من حماسه، كي يؤثر فيمن حوله، تعليمًا وتدريسًا، وتأليفًا ومناظرة.

ولذا يعتبر مجموع الفتاوى الذي حرص على تجميعه وإخراجه الشيخ عبدالرحمن بن قاسم رحمه الله - وخرج في سبع وثلاثين مجلداً - نموذجاً لآثار ابن تيمية العلمية، بما فيه من علم واسع، ومعارف متعددة، وإجابات سديدة وموفقة، وقد طبع لأول مرة بالرياض، منذ أكثر من ثلث قرن.

ولقد بلغ من متابعة العلماء لجهوده العلمية، وثنائهم على ماترك من علوم ومعارف، تتمثل في مصنفاته، أن عجزوا عن إحصاء كتبه ..

فهذا ابن الزملكاني يقول: (ولقد أعطي ابن تيمية اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة، والترتيب والتقسيم والتبيين، وقد ألان الله له العلوم، كما ألان للداود الحديدي) (١).

وهذا الحافظ الذهبي يقول عن مؤلفاته: (وما أبعد أن تكون تصانيف ابن تيمية إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد) (٢).

وهذا الشيخ ابن عبدالحادي بن قدامة يقول: (وللشيخ رحمه الله من المصنفات والفتاوى والقواعد والأجوبة والرسائل، وغير ذلك من الفوائد ما لا ينضب...)

ثم قال: (ولا أعلم أحداً من متقدمي الأئمة ولا متأخريها، جمع مثل ما جمع... فمن ذلك ما جمعه في تفسير القرآن العظيم، وما جمعه من أقوال مفسري السلف الذين يذكرون الأسانيد في كتبهم، وذلك في أكثر من ثلاثين مجلداً، ولو كتب كله لبلغ خمسين مجلداً، وقد يئس أصحابه بعض ذلك، وكثيراً منه لم يكتبوه)، وكان رحمه الله يقول: (ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول: يامعلم إبراهيم، علمني، وكنت أذهب إلى

(١) تاريخ ابن الوردي، ٤٠٦/٢.

(٢) المرجع السابق، ٤٠٩/٢، والكواكب الدرية، ص ٦٥.

المساجد المهجورة ونحوها، وأمرُغ وجهي بالتراب، وأسأل الله تعالى وأقول: يامعلم إبراهيم، فهمني^(١).

كما ذكر العلماء والباحثون في الثناء على مكانة ابن تيمية العلمية الشيء الكثير: فهذا ابن دقيق العيد - المتوفى عام ٧٠٢هـ - يقول بعد ما اجتمع بابن تيمية سنة ٧٠٠هـ في مصر: (لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه، يأخذ ما يريد، ويدع ما يريد)^(٢).

وأما ابن سيد الناس اليعمري، المتوفى عام ٧٣٤هـ فقد قال بعد أن ذكر ترجمة المزي: (وهو الذي حدّاني على رؤية الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين، فالفيتة ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً. إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفنى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه، وذو روايته)^(٣).

وأما الذهبي الإمام الحجة في حكمه وأقواله على الرجال وتراجمهم، المتوفى عام ٧٤٨هـ فقد أثنى كثيراً على شيخه ابن تيمية، واعتبره في مواقع كثيرة من تأليفه نابغة عصره، وفريد زمانه في سائر علوم المعرفة، ونجته من كلامه الطويل عنه، وإعجابه به مايلي: (كان ابن تيمية آية في الذكاء، وفي سرعة الإدراك، رأساً في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف، بجرأ في النقليات، هو في زمانه فريد عصره؛ علماً وزهداً، وشجاعة وسخاء، وأمرأ بالمعروف ونهياً عن المنكر، وكثرة تصانيف، وقرأ وحصل، وبرع في الحديث والفقه، وتأهل للتدريس والفتوى وهو ابن سبع عشرة سنة، وتقدم في علم التفسير والأصول، وجميع علوم الإسلام أصولها وفروعها، ودقها وجلها، فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا، وسرد وأبلسوا، واستغنى وأفلسوا، وإن سمي المتكلمون: فهو فردهم

(١) الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، ص ٧٧، ٧٨.

(٢) المرجع السابق ص ٥٦، وتاريخ ابن الوردى، ٤/٤١١.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/٣٩٠، ٣٩١، والكواكب الدرية، ص ٥٨، ٥٧.

وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يَقلُّم الفلاسفة فلهم وبخسهم، وهتك أستارهم، وكشف عوارهم، وله يد طويلة في معرفة العربية والصرف واللغة، وهو أعظم من أن يصفه كَلِمِي، أوينه على شأوه قلَمِي، فإن سيرته وعلومه ومعارفه، ومحنه وتنقلاته، يحتمل أن ترصع في مجلدتين، فالله تعالى يغفر له ويسكنه فسيح جناته، فإنه كان رباني الأمة، وفريد الزمان، وحامل لواء الشريعة، وصاحب معضلات المسلمين، رأساً في العلم يبالغ في أمر قيامه بالحق والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مبالغة مارأيها ولا شاهدتها من أحد، ولا لحظتها من فقيه.

وبرع في العلم والتفسير، وأفتى ودرس وله نحو العشرين سنة، وصنف التصانيف، وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه، وله المصنفات الكبار، التي سارت بها الركبان، ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر، وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين من صدره أيام الجُمُع، وكان يتوقد ذكاءً، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله، وصحته وسقمه، فما يلحق فيه، وأما نقله للفقهاء ومذاهب الصحابة والتابعين - فضلاً عن المذاهب الأربعة - فليس له فيه نظير، وأما معرفته بالملل والنحل، والأصول والكلام، فلا أعلم له فيه نظيراً، ويدري جملة صالحة في اللغة، وعربيته قوية جداً، ومعرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب، وأما شجاعته وجهاده وإقدامه فأمر يتجاوز الوصف ويفوق النعت، وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يضرب بهم المثل، وفيه زهد وقناعة باليسير في المأكل والملبس.^(١)

ويقول مرعي بن يوسف الحنبلي المتوفى عام ١٠٣٣ هـ: (لقد سئل يوماً عن الحديث: «لعن الله المحلل والمحلل له»^(٢)، فلم يزل يورد فيه وعليه، حتى

(١) انظر (العقود الدرية) ص ٢٢-٢٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، ٢٢٧/٢.

بلغ كلامه فيه مجلداً كبيراً.

وأما ما خصه الله تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعهم، وأهل الأهواء في أهوائهم، وما ألفه في ذلك من نقض أقوالهم، وتزييف أمثالهم وأشكالهم، وإظهار عوارهم، وانتحالهم، وتبديد شملهم، وقطع أوصالهم، وأجوبته عن شبههم الشيطانية، ومعارضتهم النفسانية، بما منحه الله تعالى به من البصائر الرحمانية، والدلائل النقية، والتوضيحات العقلية فمن العجب العجيب^(١).

ويقول تلميذه الحافظ عمر بن علي البزار المتوفى عام ٧٤٩هـ: (وأما مؤلفاته ومصنفاته، فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها، أو يحضرنى جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه غالباً أحداً؛ لأنها كثيرة جداً، كباراً وصغاراً، وهي منشورة في البلدان، فقل بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه: فمنها: ما يبلغ اثني عشر مجلداً كـ (تلخيص التلخيص على أساس التقديس) وغيره.

ومنها: ما يبلغ سبع مجلدات كـ: (الجمع بين العقل والنقل).
ومنها: ما يبلغ خمس مجلدات ومنها: (منهاج الاستقامة والاعتدال) ونحوه.

ومنها: ما يبلغ ثلاث مجلدات كـ (الرد على النصارى) وشبهه .
ومنها: مجلدان كـ (نكاح المحلل)، و(إبطال الحيل) ، و(شرح العقيدة الأصبهانية) .

ومنها: مجلد ودون ذلك.. وهذان القسمان من مؤلفاته، فهي كثيرة جداً لا يمكنني استقصاؤها، لكن أذكر بعضها استئناساً:
- كتاب: (تفسير سورة الإخلاص) مجلد.

- كتاب: (الكلام على قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾) مجلد.
- كتاب: (الصارم المسلول على شاتم الرسول) مجلد.
- كتاب: (الفرق المبين بين الطلاق واليمين) .
- كتاب: (الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) .
- كتاب: (اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم) .
- كتاب: (الكلم الطيب) .
- كتاب: (إثبات الكمال) .
- كتاب: (الرد على تأسيس التقديس) .
- كتاب: (نقض أقوال المبتدعين) .
- كتاب: (الرد على النصارى) .
- كتاب: (إبطال الحيل ونكاح المحلل). (١)
- كتاب: (شرح العقيدة الأصبهانية). (٢)
- كتاب: (الفتاوى) .
- كتاب: (الدر الملتقط) .
- كتاب: (أحكام الطلاق) .
- كتاب: (الرسالة) .
- كتاب: (اعتقاد الفرقة الناجية) .
- كتاب: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) .
- كتاب: (تقرير مسائل التوحيد) .
- كتاب: (الاستغاثة والتوسل) .
- كتاب: (المسائل الحموية).

(١) و(٢) لعل هذان داخلا في السابق الذي من مجلدين، وأنه قد ضم هذين الكتابين لبعضهما فكانا في مجلدين.

- كتاب: (المسائل الجزرية) .

- كتاب: (المسائل المفردة) .

ثم قال: ولا يليق هذا المختصر بأكثر من هذا القدر من مؤلفاته، وإلا فيمكن تعداد ما ينيف على المائتين، لكن لم نر الإطالة بذكره. (١)
وكان من أوفى من ذكر مؤلفاته رحمه الله، تلميذه: ابن قيم الجوزية في رسالته عنه، والصفدي في: (الوافي بالوفيات)، وابن رجب في: (طبقات الحنابلة).

ومن المتأخرين فنّد عبدالسلام هاشم حافظ في كتابه عن ابن تيمية الذي طبع للمرة الأولى عام ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م حينما قال: (ومع بداية هذا القرن - الرابع عشر الهجري - بدأت تظهر مؤلفات الإمام ابن تيمية في طبعات مختلفة في الهند والشام ومصر، ولقد طبع معظم كتبه التي احتفظ لنا بها التاريخ في مجلدات تضم عديداً من الرسائل، والكتب الصغيرة .
فهناك مجلد ضخيم باسم: (مجموعة الرسائل الكبرى) في جزأين طُبعا بمصر سنة ١٣٢٣هـ .

- الجزء الأول في ٤٧٥ صفحة، ويحتوي على هذه التصانيف:

- ١ - رسالة الفرقان بين الحق والباطل .
- ٢ - معارج الوصول إلى معرفة الأصول.
- ٣ - التبيان في نزول القرآن .
- ٤ - الوصية في الدين والدنيا .
- ٥ - رسالة النية في العبادات..
- ٦ - العرش هل هو كُرِّي أم لا؟
- ٧ - الوصية بما جاء به رسول الله ﷺ، ويان فضل أمته على سائر الأمم .

(١) انظر كتاب: (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية) ص ٢٥-٢٧ .

- ٨ - اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، وهذه الرسالة عرفت باسم (العقيدة الواسطية) وطبعت كثيراً.
- ٩ - الإرادة والأمر.
- ١٠ - المناظرة في العقيدة الواسطية.
- ١١ - العقيدة الحموية الكبرى.
- ١٢ - السؤال عن الاستغاثة برسول الله ﷺ هل جائزة أم محرمة؟ والجواب عن ذلك:

— أما المجلد الثاني ففي ٤٠٥ صفحات، ويضم الكتب التالية:

- ١ - رسالة الإكليل في التشابه والتأويل .
- ٢ - في الجواب عن القائل: كل الحلال متعذر لا يمكن وجوده في هذا الزمان.
- ٣ - مراتب الإرادة .
- ٤ - في قوله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد».
- ٥ - القضاء والقدر .
- ٦ - الاحتجاج بالقدر .
- ٧ - درجات اليقين .
- ٨ - بيان الهدى والضلال .
- ٩ - في سنة الجمعة .
- ١٠ - تفسير المعوذتين .
- ١١ - بيان العقود المحرمة .
- ١٢ - في معنى القياس .
- ١٣ - حكم السماع والرقص .
- ١٤ - الكلام على الفطرة .
- ١٥ - الكلام على القصاص .
- ١٦ - في مناسك الحج .

١٧ - الكلام على رفع الحنفي يديه في الصلاة .

- وفي عام ١٣٦٨هـ صدر أيضاً كتاب مفرد باسم: (مجموعة رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية) في ١٥٤ صفحة، بآخره رسالة لأحد تلاميذه، والكتاب يحتوي على أربعة مصنفات، أحدها مكرر من مجموعة الرسائل السابقة، وهذه الثلاث هي:

١ - رأس الحسين رضي الله عنه، بحث حول ما أشيع كذباً عن نقل رأس الإمام الحسين إلى مصر .

٢ - الرد على ابن عربي والصوفية، وهو الكتاب المسمى: (الرد الأقوم على ما في كتاب فصوص الحكم).

٣ - قتال الكفار وجوبه .

٤ - أما المكرر فهو: بيان العقود المحرمة، الوارد في رقم (١١) أعلاه .

- وأما الرسالة التي جاءت في ختام الكتاب فهي لتلميذه الإمام الشيخ: شهاب الدين أحمد بن مرّي، واسمها: (الحث على جمع كتب الشيخ ونشرها)، وقد أرسل بها إلى علماء الحنابلة بدمشق يعزيهم في فقد الإمام، ويستحثهم على العناية بمصنفاته ونشرها.

- كذلك صدر مجلد يضم كتابين من مؤلفات الإمام أحمد، هما:

كتاب: (الجواب الباهر في زوار المقابر) في ٩٠ صفحة، وهو إجابة عن استفسار من الملك الناصر، وسائر الأكابر لمعرفة الحال، وما أفتى به في هذا الموضوع .

والكتاب الثاني: الرد على الأحنائي في ٢٣٢ صفحة، وهو: (استحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية)، وقد كتب الإمام هذا الرد على ماجاء حول هذه الزيارة لقاضي القضاة الأحنائي بعد أن ألح عليه الكثيرون، في ضرورة إيضاح الحقيقة، ورد الافتراءات التي تقوّى بها القاضي المذكور .

- ومن كتب الإمام الكبيرة: (مجموعة الفتاوى)، التي ظهرت في طبعها

الأولى سنة ١٣٢٦هـ في خمسة أجزاء ضخمة تزيد على ألفين وخمسمائة صفحة، وقد تضمنت كل مناظراته، وآرائه، وأجوبته عن كثير من المسائل والفتاوى، ولقد طبع كتابه: (الاختيارات العلمية)، ملحقاً بالجزء الرابع، من هذه المجموعة الهائلة.

- كذلك كتابه النقدي الضخم: (منهاج السنة النبوية)، أول ما طبع سنة ١٣٢١هـ وعلى هامشه كتابه الموسوم: (بيان موافقة المعقول لصحيح المنقول).

- أما كتبه المعروفة الأخرى، فنذكر منها ما قد طبع أغلبه:

- ١ - السياسة الشرعية في أمور الدولة، طبع سنة ١٣٧٠هـ.
- ٢ - كتاب: مجموعة تفسير لست من سور القرآن الكريم هي: الأعلى، الشمس، الليل، العلق، الكافرون، البينة. طبع في بومباي بالهند سنة ١٣٧٣هـ الموافق لعام ١٩٥٤م، بعد أن صححه وعلق عليه، ثم قدمه بالإنجليزية السيد عبدالصمد شرف الدين.
- ٣ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، طبع في أربعة أجزاء عام ١٣٢٢هـ.
- ٤ - المعجزات والكرامات، طبع سنة ١٣٤٩هـ.
- ٥ - نقض المنطق، طبع بمصر عام ١٣٧٠هـ في ٢١٠ صفحات.
- ٦ - الرد على المنطقيين، طبع في بومباي بالهند سنة ١٣٦٨هـ في ٥٥٠ صفحة.
- ٧ - نظرية العقد - وهو كتاب: العقود، طبع عام ١٣٤٩هـ.
- ٨ - مذهب السلف القويم في تحقيق مسألة كلام الله الكريم، طبع سنة ١٣٤٩هـ في ٦٥ صفحة.
- ٩ - رفع الملام عن الأئمة الأعلام.
- ١٠ - الواسطة بين الحق والخلق.

- ١١ - الرسالة البعلبكية .
- ١٢ - الصراط المستقيم ومجانبة أصحاب الجحيم .
- ١٣ - رسالة في حقيقة الصيام .
- ١٤ - العقيدة التدمرية .
- ١٥ - العقيدة المراكشية .
- ١٦ - المسألة النصرية .
- ١٧ - سؤال عن صحة مذهب أهل المدينة .
- ١٨ - قاعدة جلية في التوسل والوسيلة .
- ١٩ - مسألة الكنائس .
- ٢٠ - النبوات .
- ٢١ - الجامع في السياسة الإلهية .
- ٢٢ - كتاب الرد على النصارى .
- ٢٣ - أربعون حديثاً برواية ابن تيمية .
- ٢٤ - جمع كلمة المسلمين .
- ٢٥ - الكلام على حقيقة الإسلام والإيمان .
- ٢٦ - نقد تأسيس الجهمية .
- ٢٧ - تحجيل أهل الإنجيل .
- ٢٨ - الصارم المسلول على شاتم الرسول .
- ٢٩ - نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان .
- ٣٠ - الرسالة المدنية في المحاز والحقيقة .
- ٣١ - إيضاح الدلالة في عموم الرسالة .
- ٣٢ - رسالة في سجود القرآن .
- ٣٣ - رسالة في سجود السهو .
- ٣٤ - رسالة في أوقات النهي والنزاع .

- ٣٥ - رسالة في تنوع العبادات .
 - ٣٦ - رسالة العبودية .
 - ٣٧ - رسالة الحسبة في الإسلام .
 - ٣٨ - رسالة المظالم المشتركة .
 - ٣٩ - رسالة في زيارة بيت المقدس .
 - ٤٠ - جوامع الكلم الطيب في الأدعية والأذكار .
 - ٤١ - كتاب الفرق المبين بين الطلاق واليمين .
 - ٤٢ - مسألة الحلف بالطلاق .
 - ٤٣ - مسألة العلو .
 - ٤٤ - الرسالة القبرصية (١) .
 - ٤٥ - تفسير سورة النور .
 - ٤٦ - بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية .
 - ٤٧ - حقيقة مذهب الاتحاديين، أو وحدة الوجود وبطلانه بالبراهين النقلية والعقلية .
 - ٤٨ - تفصيل الإجمال فيما يجب لله من صفات الكمال .
 - ٤٩ - قصيدة في مسألة القضاء والقدر (٢)
- هذا وإن غالبية هذه الكتب يشملها مجموع فتاوى ابن تيمية الذي أشرنا إليه وقام عليه جمعاً ومتابعة وطباعة الشيخ عبدالرحمن بن قاسم العاصمي النجدي بمعاونة ابنه محمد .
- كما خرج طبعة كاملة ومحققة عن طريق جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية كتابه القيم في أحد عشر مجلداً: (درء تعارض العقل والنقل).
- وخرج عن طريق الجامعة أيضاً في سبعة مجلدات بعد التحقيق كتابه:

(١) كان الإمام قد كتب بهذه الرسالة إلى (سرجوان) ملك قبرص النصراني، يبين له فضل الإسلام ويدعوه لرعاية المسلمين الذين تحت حكمه .

(٢) انظر كتاب: (ابن تيمية) لعبد السلام هاشم حافظ، ص ١٥٢-١٥٧ .

(منهاج السنة) .

ومن هذا ندرك أنه رحمه الله مكتبة كاملة في فنون المعرفة، التي سخرها للدفاع عن دين الإسلام، والدعوة إليه، ومحاربة الشوائب التي يراد إدخالها عليه؛ عقيدة وعملاً .

شجاعته في الحق:

اتصف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوة القلب، ورباطة الجأش في كل موقف يمر به مع قوة إيمان، وحجة دامغة، مما نتج عنه شجاعة متناهية في سبيل عقيدة الإسلام، ومحاربة أعداء دين الله، وأهل البدع؛ بالبدن واللسان، وقوة الحجة.

وقد تحدث تلميذه البرّار المتوفى عام ٧٤٩هـ عن مظاهر عديدة من شجاعته في كتابه الذي خصه به، وسماه: (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية)، ومما قاله: (كان رضي الله عنه، من أشجع الناس، وأقواهم قلباً، مارأيت أحداً أثبت جأشاً منه، ولا أعظم عناء في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومة لائم .

وأخبر غير واحد: أن الشيخ رحمه الله كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتهم، وقطب ثباتهم، إن رأى من بعضهم هلعاً أو رقة أو جبانة، شجّعهم وثبته وبشره، ووعدته بالنصر والظفر والغنيمة، ويّين له فضل الجهاد والمجاهدين، وإنزال الله عليهم السكينة. وكان إذا ركب الخيل يتحنك^(١)، ويجول في العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان، ويكبر تكبيراً أنكى في العدو من كثير من الفتك بهم، ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت.

وأخبرني من لا أتهمه: أن الشيخ رحمه الله حين وُشيّ به إلى السلطان المعظم الملك الناصر محمد، أحضره بين يديه، قال: فكان من جملة كلامه: إنني

(١) التحنك هو: وضع العمامة تحت الذقن ولف طرفيها على الرأس .

أخبرت أنك قد أطاعك الناس، وأن في نفسك أخذ الملك، فلم يكثر به، بل قال له بنفس مطمئنة، وقلب ثابت، وصوت عال سمعه كثير من حضر: أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك وملك المغول، لا يساوي عندي فلسين. فتبسم السلطان لذلك، وأجابه في مقابله بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة: إنسك والله لصديق، وإن الذي وشى بك إلي كاذب. واستقر له في قلبه من المحبة الدينية ما لولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل؛ من كثرة ما يُلقى إليه في حقه من الأقاويل الزور والبهتان، ممن ظاهر حاله للطعام: العدالة، وباطنه: مشحون بالفسق والجهالة^(١). ومن قوته في الحق، وصدعه بالدعوة هدى الله قادة المغول للإسلام؛ لأن صدقه مع الله منحه الشجاعة والجر بالحق، وجعل الله له بذلك القبول في القلوب .

وفي الدفاع عن دمشق، وفتح عكا، ومعركة شقحب وغيرها من المعارك، كان المثل النادر بالشجاعة والقوة، وإذا تفقد من معه فوجدهم ملتزمين بشرع الله، وحريصين على دينهم، كان يقول لهم: سنتنصر على الأعداء، فيقول له بعضهم: قل: إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً؛ لأن الله أمرنا بطاعته والاستعداد. فطعنناه فيما أمر، واستعدينا لملاقاة العدو .

وفي حوار مع السلطان غازان - أحد ملوك التتار - لما ظهر على دمشق، ما يدل على قوة بأسه، وعدم خوفه من سطوته، وكان مما قاله حسبما ذكر الشيخ مرعي بن يوسف الحنبلي المتوفى عام ١٠٣٣هـ في كتابه: (الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية)، قال الشيخ ابن تيمية للترجمان: (قل للسلطان أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون - على ما بلغنا - فغزوتنا، وأبوك وجدك هولاء كانوا كافرين، وما

(١) انظر (الأعلام العلية) الفصل الحادي عشر، ص ٦٣-٦٦، والفصل الثاني عشر،

عملاً الذي عملت، عاهداً فوفياً، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت وجُرت. والسلطان من شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة سأل: من هذا الشيخ؟ فإني لم أر مثله، ولا أثبت قلباً منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيته أعظم انقياداً لأحد منه.... ثم خرج من بين يدي السلطان مكرماً معززاً بحسن نيته الصالحة من بذله نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه الله ما أراد، وكان أيضاً سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردهم على أهليهم).^(١)

وقد ذكر عبدالسلام حافظ عنه مواقف كثيرة، في شجاعة القتال الميداني، والتصدي للتتار، وفي قوة العزم، ومحاربة كل دخيل على منهج الإسلام السليم: من عقائد ومفاسد، وضلال وغواية، إلى درء للمحرمات، ومقاومة مصادرها، ومن ذلك:

- في يوم ١٧ رجب عام ٦٩٩هـ نفذ الإمام عزمه على القضاء على آلات الشرب المحرم، فخرج بنفسه مع بعض رفاقه، يلورون على الحانات ومحال الخمر، يريقونها، ويكسرون آنيتها، بل ويعزرون أصحابها.^(٢)
- وفي شهر رجب سنة ٧٠٤هـ قصد الإمام مسجد التاريخ، يرافقه نفر من أصحابه ومن الحجّارين، حيث أمرهم بإزالة صخرة كانت تُزار، وتُنذر لها النذور بنهر (فلوط)، وعنّها قال ابن كثير: (فقطّعها - يعني ابن تيمية - وأراح الله المسلمين منها ومن الشرك).
- وفي أوائل شهر محرم سنة ٧٠٥هـ نراه يشارك أيضاً في الحملة ضد فئات منحرفة تنكّرت لبعض تعاليم الإسلام، ببلاد الجرد، والرفض، والتيامنة، وقد لحق به نائب السلطنة جمال الدين الأقرم في جنده المسلمين، فحاربوهم

(١) الكواكب الدرية، ص ٩٤، ٩٣.

(٢) انظر كتابه: ابن تيمية ص ٢٧.

حتى أعلنوا الطاعة وأنابوا إلى الهدى^(١).

وهكذا لو تبعنا مواقفه الجريئة، وحماسته للذود عن حياض الإسلام، لوجدناها بكثرتها تنبئ عن مواقف مشرفة في الدفاع عن حمى الإسلام من أن يتناول عليه أحد، ويبرز منها ردود وافية على أصحاب المعتقدات المتطرفة، وأتباع المذاهب المخالفة لحقيقة الإسلام، وما تنطوي عليه شريعة هذا الدين، مما جعل له خصوصاً كثيرين، سواء من العامة أو من العلماء والفقهاء على اختلافهم، حيث كان ينقض ادعاءاتهم المريبة، ويعرّي مخالفتهم لأصول الدين، ويرد بآراء قوية، لم يجرؤ مثله بالتصريح بها. وقد صدق الإمام مالك رحمه الله في قوله: (ما منا إلا رادّ ومردود عليه).

ما تعرض له من بلاء:

لا شك أن هذه الشجاعة والجرأة في الحق، مع الحرص على التصدي لأمر كثيرة تفتت في البيئة الإسلامية، نتيجة الجهل والبعد عن المنهج السليم، الذي جاء به رسول الله ﷺ من ربه، وتلقفه عنه أصحابه لينشروه في الآفاق، وعندهم أخذ السلف الصالح جيلاً بعد جيل، هذا في بعض الجوانب المتعلقة بما أدخل على الدين نتيجة التقليد، والاستسلام لرغبات النفس، والانقياد للعلماء الذين يقتون بغير ما أنزل الله، حيث كان يخشاهم رسول الله ﷺ على أمته . هذه الشجاعة والجرأة في الحق ما هي إلا هبة من الله لابن تيمية تبوأها بالصدق مع الله والنية المخلصة.

ولهذا فهو ينتصر على خصومه، ويظهره الله على كيد أعدائه، ثم يقابل أعمالهم بالصبر وقوة الاحتمال، فإذا قدر عفى وصفح. وقد حاول أعداؤه مراراً النيل منه، بل القضاء على حياته، ولكن حينما تمكن منهم عفا عنهم وقال: أما أنا فهم في حل من حقي، ومن جهتي. وكان القاضي زين الدين ابن مخلوف -

(١) الإمام ابن تيمية، لعبد السلام حافظ، ص ٢٧ .

قاضي المالكية - يقول بعد ذلك: (ما رأينا أتقى من ابن تيمية، إذ لم نُبق ممكناً في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا)^(١) .

ولقد حبس عدة مرات بسبب مكائد الخصوم، ووشى به إلى السلاطين لعله يقتل، لكن الله سبحانه ينجيهِ؛ لأن من حفظ الله حفظه، ومن كان مؤمناً حقاً استحق دفاع الله عنه.

ودعي للمناظرات والخصومات عن ردوده على أصحاب الفرق والبدع، يقول تلميذه البزار: (ولقد سجن أزماناً وأعصاراً وسنين وشهوراً، ولم يولّهم -أي: المسيئين إليه والمخاصمين له- دبره فراراً، ولقد قصد أعداؤه الفتك به مراراً، وأوسعوا حيلهم عليه إعلاناً وإسراءً، فجعل الله يحفظه منهم شعاراً ودثاراً، ولقد ظنوا أن في حبسه مشينة، فجعله الله له فضيلة وزينة، وظهر له يوم موته ما لو رآه وادّه في حياته أقر به عينيه)^(٢)، فإن الله تعالى؛ لعلمه بقرب أجله، ألبسه في الفراغ عن الخلق للقدوم على الحق أجمل حلله، كونه حبس على غير جريرة ولا جريمة، بل على قوّة في الحق وعزيمة. هذا مع ما نشر الله له من علومه في الآفاق، وبهر بفنونه البصائر والأحداق، وملاً بمحاسن مؤلفاته الصحف والأوراق، كتباً ورجماً للأعداء، أهل البدع المضلة والأهواء)^(٣).

وهذا الكلام الجمل من تلميذ عاصر أستاذه، وعرف ما حصل له، وكأنه يريد بذلك ما حصل له من منع عن الفتوى، ومن سجن في القاهرة، ثم سجن في الاسكندرية، ثم سجن في دمشق حتى توفي وهو في هذا السجن الأخير. إذ أن من يختلف معه رحمه الله في أي أمر يطرحه، يلجأ إلى حيلة

(١) السيرة العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية، للدكتور عبدالرحمن الفريوائي، ص ١٧ .

(٢) يذكر هذا الموقف بقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله لما قيل له عن كثرة خصومه والمخالفين له قال:

موعدهم يوم الجنائز .

(٣) الأعلام العلية، ص ٦٨ .

العاجز بالإيقاع به، والخوض في عرضه، والافتراء عليه، حتى توغر الصدور عليه، وتأمر السلطة بسجنه .

١ - ففي عام ٧١٨ هـ كان من ضمن ما تحدث فيه فتواه في الحلف بالطلاق، واعتبره معاصروه أمراً خطيراً، إذ أن هذه المسألة الفقهية لم تثر إلا في زمنه، إذ أنه أفتى بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع إلا واحدة رجعية، وبعدم وقوع الطلاق بالحلف به إذا حنث، وأن على الخالف أداء كفارة اليمين فقط، إذا كان لا يقصد إيقاع الطلاق، وإنما هدفه اليمين، فثار عليه القوم آنذاك، وأقيمت عليه الدعاوى حتى اضطر الحاكم إلى إصدار أمر بمنع الشيخ ابن تيمية من الفتوى بعدم وقوع الطلاق، وإلى المناداة بهذا في الأسواق العامة؛ ليعرفه الناس، ويحذروا من الوقوع في شره - كما اعتقدوا - ولكنه رحمه الله؛ لقوة إرادته وإيمانه كان يقول: (لا يسعني كتمان العلم)، فصار يجاهر برأيه، ويجيب على من يستفتيه، مما سبب له السجن في دمشق قرابة نصف عام. (١) فهو يخشى أن يلجم بلجام من نار، كما جاء الوعيد من رسول الله ﷺ لمن سئل عن علم فكتمه.

٢ - وبعد خروجه من السجن أثار عليه خصومه مسألة أخرى في موضوع: (شد الرحال)، مع أن الرأي الذي يقول به هو قول الإمام مالك: أن السفر إلى أضرحة الأولياء غير مشروع، بل وفيه معصية، أخذاً من الحديث الشريف المتفق على صحته: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»، يعني: المسجد النبوي، وقد ضمن آراءه في هذا كتابه: (الجواب الباهر في زوار المقابر)، وفي كتابه الآخر: الرد على الأخنائي، وهو: (استحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية)، مستدلاً بما جاء عن الله وعن رسوله، وبما أفتى به صحابة رسول الله ﷺ، ومن جاء بعدهم من

(١) كتاب ابن تيمية، لعبد السلام حافظ، ص ١٠٨ .

سلف الأمة، فما زال خصومه بالسلطان حتى سجنه في عام ٧٢٦هـ في قلعة دمشق، ومعه شقيقه زين العابدين عبدالرحمن، وسجن معه فريق من أصحابه العلماء، وعزروا بعض الوقت، وفيهم تلميذه النابغة ابن قيم الجوزية، الذي بقي في السجن مدة طويلة بينما جرى إطلاق الآخرين. (١)

٣- وقد امتحن رحمه الله بمحن أخرى وخاض فيه أقوام، ونسبوه للبدع والتجسيم، وهو من ذلك بريء، بل كان يحارب البدع ويشدد النكير على أهلها، وكان أول محنة في ذلك له في شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨هـ بسبب عقيدته الحموية الكبرى، وهي جواب سؤال ورده من حماة، فوضعها ما بين الظاهر والعصر في ست كراريس، فجرى له بسبب تأليفها أمور ومحن، حيث رجح مذهب السلف على مذهب المتكلمين، وشنع عليهم وقد توسع في بيان ما حصل له: الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي (٢).

٤- ولما سكنت فتنة الحموية، وبعدها بمدة طويلة ظهر الشيخ نصر المنبجي بمصر، واستولى على أرباب الدولة القاهرة، وشاع أمره وانتشر، فقبل لابن تيمية: إنه اتحادي وأنه ينصر مذهب ابن العربي، وابن سبعين، فكتب إليه نحو ثلاثمائة سطر ينكر عليه، فتكلم نصر المنبجي مع قضاة مصر في أمره، وقال: (هذا مبتدع وأخاف على الناس من شره)، فعقد للشيخ ابن تيمية في رجب عام ٧٠٥هـ مجلس وسئل عن عقيدته، فقدم لهم: (الواسطية)، وقال: (هذه كتبها من نحو سبع سنين قبل مجيء التتار إلى الشام)، ثم دعي لمصر وعقد له مجلس مناظرة، وعقد له مجلس ثالث بالقصر، وبعد أن أودى، أبرئت ساحته (٣).

(١) الإمام ابن تيمية، لعبد السلام حافظ، ص ١١١، ١١٢.

(٢) راجع (الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية)، ص ١٠٢-١١٤.

(٣) انظر (الكواكب الدرية) للشيخ مرعي بن يوسف الذي توسع في تفاصيل هذه المحنة،

ص ١١٢-١١٦.

٥- وتآلب عليه خصومه في مصر، بعدما وصلها في رمضان عام ٧٠٥هـ، حيث جُمع له القضاة وأكابر الدولة بالقلعة، وادّعى عليه عند القاضي ابن مخلوف المالكي خصم بأنه يقول: إن الله فوق العرش حقيقة، وأن الله يتكلم بحرف وصوت، وزاد الحافظ الذهبي: وأن الله يشار إليه الإشارة الحسية، وطلب عقوبته على ذلك.. وقد حبس على ذلك في الحب ثمانية عشر شهراً، وقد ذكر الشيخ مرعي تفاصيل ذلك^(١)، وكان مما قاله: (سبب محتته وابتلائه: قيامه في الله، والرد على أهل البدع والعقائد الفاسدة، ومبالغته في الرد على الفقراء الصوفية -الأحمدية والرفاعية- بسبب خروجهم عن الشريعة)^(٢).

ومن يقرأ ما كتبه ابن تيمية يرى أن قوله في الاستواء بمثل ما قال إمام دار الهجرة مالك رحمه الله: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة).

٦ - وفي شوال عام ٧٠٧هـ شكّا شيخ الصوفية بالقاهرة - كريم الدين الأملي وابن عطاء وجماعة نحو الخمسمائة- من الشيخ تقي الدين ورأيه في ابن عربي وغيره إلى الدولة، فخيروه بين الإقامة بدمشق أو الإسكندرية بشروط، أو الحبس، فاختر الحبس وقال: أنا أمضي إلى الحبس، وأتبع ما تقتضيه المصلحة.

ولما دخل الحبس، وجد المحاييس مشغولين بأنواع من اللعب، يلتهمون بها عما هم فيه كالشطرنج والرد، مع تضييع الصلوات، فأنكر الشيخ ذلك عليهم، وأمرهم بملازمة الصلاة، والتوجه إلى الله بالأعمال الصالحة، والتسبيح والاستغفار والدعاء، وعلمهم من السنة ما يحتاجون إليه، ورغبهم في أعمال

(١) الكواكب الدرية، ص ١٢٦-١٣٣ .

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٦ .

الخير، وحضهم على ذلك، حتى صار الحبس بالاشتغال بالعلم والدين خيراً من كثير من الزوايا والربط والخوانق والمدارس .

وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده، وكثر المترددون إليه، حتى كان السجن يمتلئ منهم .

واستقر الشيخ في الحبس يُستفتى، ويقصده الناس ويزورونه، وتأتيه الفتاوى المشكّلة من الأمراء والأعيان. فلما كثر اجتماع الناس به، وترددهم إليه ساء ذلك أعداءه وحصرت صدورهم، فسألوا نقله إلى الإسكندرية فنقل. (١)

إلى غير ذلك من المواقف التي كانت له من أعدائه، وهو صابر محتسب، حيث روي له قوله: (ماذا يصنع أعدائي بي؟ أنا جنّي وبستاني في صدري، فهي معي لا تفارقي، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة) (٢). لأنما يغيضهم يسرُّه، ولأنه رحمه الله كالغيث أينما حل نفع.

ثناء العلماء عليه:

تبين منزلة العالم بمكانته عند الخاصة والعامة، فالخاصة وهم العلماء لا يحكمون عليه إلا بعد تمحيص علمه، وإدراك فضله في المأخذ العلمي، وطريقة الطرح والاستدلال. إذ لا شك أن كل طالب علم له قوادح ومادح.

فالقادحون تمحص آراؤهم بطريقة النقد، فإن لم تستند على المقياس الأساسي، وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهي آراء مجروحة، ورغبات صادرة عن هوى، وما بني على باطل فهو باطل .

أما المادحون فينظر في مكاتبتهم وثقلهم العلمي؛ لأن من رفعة مكانة

(١) الكواكب الدرية، ص ١٣٣-١٣٥ .

(٢) الإمام ابن تيمية، ص ١١٣ .

الممدوح ثناء ذوي الفضل والمكانة عليه، وهم العلماء والمعتد بعلمهم، المعروفون بالفضل والعدالة وحصافة الرأي .

وشيوخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله اتفق أهل العلم المرموقون من معاصريه، ومن جاء بعدهم، على فضله وإمامته، وأنه يستحق التسمية بشيخ الإسلام، لما منحه الله من تفوق علمي، وفضل وزهد وورع، إلى جانب حسن الخلق والحلم والمقدرة على التحمل، فقد أسبغ الله عليه نعماً كثيرة، هي من الله فضل، وهي للشيخ لباس يتجمل به، وحلية تزين ما بين جنبيه من علم، وسعة اطلاع في معارف عديدة.

والمتابع لكتب التراجم والسير، لا يحصي كثرة من أثنى على هذا الإمام عرفاناً بمكانته في العلم الذي جمهله الله به .

وقد اتفق علماء الإسلام على تسميته شيخ الإسلام، . حيث تصدى ابن ناصر الدين الدمشقي - في كتابه: (الرد الوافر على من زعم: بأن من سمى ابن تيمية "شيخ الإسلام" كافراً) - لمن قال بهذا القول، أثبت أن ما يقرب من (٨٨) عالماً من أئمة الإسلام لقبوا ابن تيمية بشيخ الإسلام. وهذا شبه إجماع، والأمة لا تجتمع على ضلالة، ومن أولئك العلماء العلامة أبو عبدالله محمد بن الصفي عثمان الحريري الأنصاري الحنفي، قاضي القضاة في مصر والشام الذي قال: (إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن؟) (١).

كما أثنى عليه خلق كثير من العلماء عاصره بعضهم، وأطنبوا في هذا الثناء، تقديراً لمكانته، وعرفاناً بما منحه الله من علم وفضل، ومن عاصره، وأعطاه ما يستحقه من المنزلة العلمية والتبحر في العلوم والعقائد:

١ - ابن دقيق العيد المتوفى عام ٧٠٢ هـ .

٢ - إبراهيم بن أحمد الرقي المتوفى عام ٧٠٣ هـ .

(١) الرد الوافر، ص ١٠٢ .

- ٣ - أحمد بن إبراهيم الواسطي المتوفى ٧١١هـ .
 - ٤ - إسحاق بن أبي بكر بن ألى التركي المتوفى في حدود عام ٧٣٠هـ .
 - ٥ - قاضي القضاة ابن الزمِّلِكَّاني الشافعي المتوفى عام ٧٢٧هـ .
 - ٦ - قاضي قضاة مصر والشام محمد بن عثمان الحريري الأنصاري الحنفي المتوفى عام ٧٢٨هـ .
- وهؤلاء الستة ماتوا قبل وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية، أما من عاصره وتوفي بعده فممنهم:
- ٧ - ابن سيد الناس اليعمري المصري المتوفى عام ٧٣٤هـ .
 - ٨ - الإمام الحافظ أبو محمد البرزالي الشافعي المتوفى عام ٧٣٨هـ .
 - ٩ - جمال الدين المزي المتوفى عام ٧٤٢هـ .
 - ١٠ - الإمام الحافظ شمس الدين ابن عبد الهادي بن قدامة المقدسي المتوفى عام ٧٤٤هـ .
 - ١١ - شيخ النحاة محمد بن يوسف بن حيَّان الأندلسي الشافعي المتوفى عام ٧٤٥هـ .
 - ١٢ - الحافظ الناقد شمس الدين الذهبي المتوفى عام ٧٤٨هـ .
 - ١٣ - الإمام عمر بن مظفر بن الوردي الشافعي المتوفى عام ٧٤٩هـ .
 - ١٤ - الإمام أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري الشافعي المتوفى عام ٧٤٩هـ .
 - ١٥ - الإمام الحافظ أبو حفص عمر بن علي البزار المتوفى عام ٧٤٩هـ .
 - ١٦ - الإمام المحدث المؤرخ ابن كثير المتوفى عام ٧٧٤هـ .
- وغير هؤلاء من أفاضل العلماء، إلى جانب القصائد التي قلت في رثائه بعد وفاته، وأجوبة من علماء بغداد والبصرة، وعلماء الشافعية والمالكية والأحناف في الانتصار له رحمه الله فيما حصل له من امتحان في المسائل التي نوقش فيها، والتي أثرت ضده وبشأنها شبه، حيث استعيدت من أجلها

السلطة (١).

وقد أجمل أسماء أصحاب الشيخ وأعوانه ومحبيه الحافظ أبو حفص عمر ابن علي البزار في كتابه: (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية) بـ ٣٤ عالماً، وفندهم واحداً واحداً، بأسمائهم وتراجمهم، أما أعداؤه والمعتضون عليه فهم اثنا عشر فرداً فقط (٢).

ومن هذه المقارنة يتضح أن انصاره والعارفين بجلال قدره أضعاف المعتضين عليه. وهذا وحده كافٍ في إبراز مكانة هذا الشيخ الجليل، والانتصار له على خصومه، الذين تضاءلت دعاوهم عليه رحمه الله، مع سعة علمه، وقوة حجته، ونصرته لدين الله، ومن كان مع الله كان الله معه، وصدق الله في تسليته لبيه ﷺ: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُفْ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ • إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (٣).

ومع الأيام والاهتمام بمنهج شيخ الإسلام ابن تيمية: دراسة وتبعاً تبرز دراسات ومتابعات لحياة هذا العالم الفذ، وآخر ما وقع في يدي عن شيخ الإسلام - وإن كان في كل يوم يظهر عنه شيء جديد - كتاب للدكتور عبدالرحمن بن عبد الجبار الفريوائي الذي نشرته الجامعة الإسلامية في بنارس الهند، بعد الاهتمام بهذا الشيخ في ندوة علمية كبيرة بهذه الجامعة عن ابن تيمية.

هذا الكتاب عن السيرة العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية، ويقع في ٢٢٣ صفحة من القطع المتوسط، جاء من اهتمام المؤلف بابن تيمية، حيث كان

(١) من يريد تفاصيل الذب عن الشيخ وما قاله العلماء عنه فلينظر الكواكب الدرية

ص ٥٥-٧٦، و ص ١٥٩-٢٣٢، والدرر الكامنة، والأعلام العلية، والسيرة العلمية لابن تيمية للدكتور

عبدالرحمن الفريوائي الذي اهتم بدراسة وتبع أحوال ابن تيمية.

(٢) الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٧٩-٨٧.

(٣) سورة النحل، الآيتان ١٢٧، ١٢٨.

الجانب الحديثي في سيرته واهتمامه بأحاديث رسول الله ﷺ، هو موضوع رسالة الدكتور عبدالرحمن العلمية، مما جعله يهتم به، ويتابع ما نشر عنه في عدة لغات عالمية .

وقد حرص على تتبع الدراسات حول ابن تيمية وآثاره، في المؤلفات، وفي سيرته باللغة الأوردية والإنجليزية، والعربية، وما كتبه علماء التراجم والتاريخ في الهند وغيرها.

ونجمل ذلك في الأرقام التالية:

- أ - المؤلفات المتعلقة بسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية وعلومه عددها ٩٦ (١).
 - ب - كتب السير والتاريخ والتراجم التي تناولت شخصية ابن تيمية، أورد منها ١٠٢ ثم قال: (وهي كثيرة لا يأتي عليها الإحصاء) (٢).
 - ج - بحوث الندوة العالمية عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية المقامة في الجامعة السلفية بنارس بالهند ٢٩ ربيع الأول - ٢٠١١ ربيع الثاني سنة ١٤٠٨ هـ الموافق ٢٢-٢٤ نوفمبر عام ١٩٨٧ م، وعددها ٤٠ (٣).
 - د - شيخ الإسلام في الدراسات الاستشراقية في جامعات الغرب، ويبلغ عددها ٢٠ (٤).
 - هـ - مختصرات من مؤلفات ابن تيمية، ويبلغ عددها ١٣ (٥).
 - و - تراجم مؤلفات ابن تيمية إلى اللغة الأوردية، ويبلغ عددها ٣٧ (٦).
- وهذا الاهتمام الذي لازال مستمراً ينبىء عن المكانة التي وهبها الله

(١) انظر (السيرة العلمية) للغريواتي، ص ١٨٠-١٩٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٩-٢٠٧.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٠٧-٢١١.

(٤) نفس المصدر، ص ٢١١-٢١٤.

(٥) نفس المصدر، ص ٢١٤-٢١٦.

(٦) نفس المصدر، ص ٢١٦-٢١٨.

للشيخ، بسطة في العلم، وتوفيقاً في بذله، ومكانة في المجتمع، وقبولاً لدى الخاصة والعامة، فكانت كلما زادت الدراسة عنه، وكلما اهتم الباحثون بالكتابة - سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين - بان أمامهم شيء جديد، في حياة الشيخ وعلومه، وطريقته في استخلاص الدليل، وإبراز الحجة، وآخر ما حدثني عنه أستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، أنه وجد في إحدى مكتبات تركيا: المكتبة السليمانية باستامبول مخطوطة لم يسبق معرفتها من قبل لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهو في صدد إنهاء تحقيقها، ودراستها لتتشر ضمن مجهودات وأعمال ابن تيمية التي يتشوق إليها كل طالب علم، اسم هذه المخطوطة: (تزكية النفس)، والقائم عليها هو الدكتور: محمد بن سعيد القحطاني .

وقائع في حياته:

رغم أن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلها عمل وجهاد، وطلب للعلم، وتأليف فيه وتعليم للناس. وفتياً ودفاع عن حوزة الإسلام.. إلا أن المهتمين بسيرة الشيخ قد رصدوا بعض الحوادث الكبرى في حياته رحمه الله، مقرونة بالتاريخ، وكان من المهتمين بذلك تلميذه: الحافظ البزار المتوفى عام ٧٤٩هـ، في كتابه: (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية)، كما اهتم بها غيره من محبيه وتلامذته، ورصد أغلبها ابن كثير في تاريخه: (البداية والنهاية) حسب حوادث السنين، حيث ظهر من أغلبها ما امتحن به الشيخ وما تحمله في هذا السبيل، حرصاً على تصحيح العقائد، وإبانة لما أوجب الله في تبليغ العلم، والدفاع عن دين الله والحماية لجناب التوحيد الذي هو الأصل الأصيل، وخشية من الإطالة في

سرد الحوادث نحتزئ بعضاً من الحوادث الكبرى في حياة ابن تيمية رحمه الله:

١ - في عام ٦٨٣هـ وفي الثاني من محرم: أول درس يلقيه ابن تيمية بدار الحديث السكّرية بالقصّاعين، خلفاً لأبيه الذي توفي عام ٦٨٢هـ في انسلاخ ذي الحجة. وقد حضر درسه قاضي القضاة بهاء الدين ابن الزكي الشافعي والشيخ تاج الدين الفزاري، وزين الدين ابن المرحّل، والشيخ زين الدين ابن المنجّ، وكان درساً هائلاً، وقد كتبه: تاج الدين الفزاري بخطه لكثرة فوائده، وكان عمر الشيخ إذ ذاك عشرين سنة وستين، ثم جلس في عاشر صفر بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هيء له لتفسير القرآن العزيز، وكان يجتمع عنده الخلق الكثير، والجهم الغفير (١).

٢ - في عام ٦٩٢هـ يحج الشيخ، وفي عام ٦٩٣هـ يطلب نائب السلطان عز الدين أليك الشيخ ابن تيمية، وزين الدين الفارقي شيخ دار الحديث، ويضربهما ويرسم عليهما بالعذراوية بسبب حادثة عساف النصراني، ثم يطلقهما (٢).

٣ - وفي عام ٦٩٤هـ يأذن الإمام شرف الدين أحمد المقدسي لابن تيمية بالإفتاء، وكان يفتخر بذلك ويقول: (أنا أذنتُ لابن تيمية بالإفتاء) (٣).

٤ - وفي عام ٦٩٥هـ في ١٧ شعبان يدرس ابن تيمية في المدرسة الحنبلية

(١) البداية والنهاية، ٣٠٣/١٣.

(٢) المصدر السابق، ٣٣٣/١٣-٣٣٦.

(٣) نفس المصدر، ٣٤١/١٣.

عوضاً عن الشيخ زين الدين ابن المنجّ المتوفى، وقد بقي يدرس فيها إلى عام ٧٢٦هـ .

- ٥ - وفي عام ٦٩٨هـ محنة ابن تيمية بسبب العقيدة الحموية. (١)
- ٦ - عام ٦٩٩هـ يتوجه الشيخ للقاء قازان عند النبك مع أعيان دمشق؛ لأن قازان جاء للشام، وتمت بينه وبين الجيش المصري وقفة في وادي الخزندار عند سلمية حيث انكسر الجيش المصري أمامه، ثم يتوجه الشيخ مصاحباً الحملة التي هيئت لقتال بعض المنحرفين عن الدين في جبال الكسروان فينتصرون عليهم. (٢)
- ٧ - عام ٧٠٠هـ ذهاب الشيخ إلى مصر لحث السلطان على الجهاد ومعاونته أهل دمشق. وفي عام ٧٠١هـ يثور جماعة من الحسدة على الشيخ بدمشق، ويشكّون أنه يقيم الحدود، ويعزّز ويخلق رؤوس الصبيان، فبين لهم خطأهم. (٣)
- ٨ - وفي عام ٧٠٢هـ يزور الحساد كتاباً على الشيخ، وعلى القاضي شمس الدين الحريري، وجماعة من الأمراء والخواص، أنهم يناصحون التتر ويكاتبونهم، ولكن الله يحق الحق، فيعرف نائب السلطنة أن الكتاب مكذوب، فيأمر بقطع يد كاتبه. (٤)
- ٩ - في عام ٧٠٢هـ وقعة شقحب مع التتار، وخروج الشيخ إلى العسكر يحلف لهم: أنكم في هذه المعركة منصورون، ولما قيل له: قل: إن شاء الله، قال: أقولها تحقيقاً لا تعليقاً، فحقق الله لهم النصر، وعاد الشيخ وأصحابه إلى دمشق (٥).

(١) البداية والنهاية ، ٤/١٤ .

(٢) المصدر السابق ، ١٤/٧-١٢ .

(٣) نفس المصدر ، ١٤/١٦-١٩ .

(٤) نفس المصدر، ١٤/٢٢ .

(٥) نفس المصدر، ١٤/٢٣-٢٥ .

١٠ - وفي عام ٧٠٤ هـ يذهب الشيخ إلى مسجد النارنج بدمشق، ويأمر أصحابه ومعهم المختصون بقطع صخرة هناك بنهر قلو ط تُزار ويُنذر لها، فقطعها، للقضاء على الشرك بالله.

- وفي نفس العام يحضر شيخاً - كان يلبس دُلُقاً كبيراً متسعاً جداً - يسمى المجاهد إبراهيم القطان، فيأمر بتقطيع الدلق، وحلق رأسه، وتقليم أظفاره، وحف شاربه المسبل على فمه، المخالف للسنة، ثم يستتبه من كلام الفحش، وأكل ما يغير العقل. (١)

- وفي نفس العام في شهر ذي الحجة يركب الشيخ ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروانيين، فاستابوا خلقاً منهم، وألزمهم بشرائع الإسلام، ورجع مؤيداً منصوراً. (٢)

١١ - وفي عام ٧٠٥ هـ يخرج الشيخ للغزاة، مع الجيش الشامي في بلاد الجرد والرفض والتيامنة، فنصروا عليهم.

- وفي نفس العام يشكو الفقراء الأحمديّة - الصوفية - الشيخ إلى نائب السلطنة، طالبين رفع إمارته عنهم، وأن يسلم لهم حالهم، فأصر الشيخ على أن يدخلوا تحت الكتاب والسنة، وانتصر الشيخ عليهم بعد ثلاثة مجالس عقدت .

- وفي هذا العام يذهب الشيخ إلى السجن، ويخرج الحافظ المزي دون إذن القاضي.

- وفي نفس السنة يذهب إلى القاهرة لمقابلة السلطان، حيث عقد مجلس له

(١) البداية والنهاية، ١٤/٣٣، ٣٤ .

(٢) المصدر السابق، ١٤/٣٥ .

في القلعة، وسئل فيه عما ينسب إليه: (إن الله فوق العرش حقيقة، وأن الله يتكلم بحرف وصوت)، ثم حبس ابن تيمية على أثر ذلك في الحبس المعروف بالجب.

- وفي نفس العام يقرأ في الجامع الأموي كتاب من السلطان، بالخط على الشيخ تقي الدين، ومخالفته في العقيدة، وأن ينادى بذلك في البلاد الشامية، وإلزام أهل مذهبه بمخالفته، وكذلك وقع بمصر^(١).

١٢ - خروج الشيخ عام ٧٠٧هـ، من السجن بعد أن مكث فيه ١٨ شهراً، وبقي في القاهرة فترة، ثم توجه منها إلى الإسكندرية سنة ٧٠٩هـ، ونزل في دار السلطان في بر فسيح منها، متسع الأكثاف، فينوي المرافقة، ويبقى ثمانية أشهر .

- وفي نفس العام يطلبه السلطان الناصر، ويأتيه في القاهرة ليجتمع به، ويصلح ما بينه وبين القضاة المصريين والشاميين، ثم ينزل القاهرة، ويسكن بالقرب من مشهد الحسين^(٢) .

١٣ - وفي عام ٧١٢هـ يخرج الشيخ من القاهرة بصحبة السلطان الناصر بنية الغزو، فلما تبين له عدم الغزو، توجه من غزة إلى القدس، وعاد إلى دمشق عن طريق عجلون وبلاد السواد وزرع، واستقر بها^(٣) .

١٤ - وفي عام ٧١٨هـ يجتمع قاضي القضاة شمس الدين ابن مسلم بالشيخ، ويشير عليه بترك الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق، فيجيبه إلى ماطلب، وفي نفس الوقت ورد كتاب من السلطان بمنع الشيخ من الإفتاء في مسألة

(١) البداية والنهاية، ٣٨-٣٥/١٤ .

(٢) المصدر السابق، ٥٣-٤٥/١٤ .

(٣) نفس المصدر، ٦٧/١٤ .

الحلف بالطلاق، وقد نودي به في دمشق^(١).

١٥ - لكن الشيخ في عام ٧٢٠هـ عاد للإفتاء بمسألة الطلاق فاعتقل بقلعة دمشق، إلا أنه بعد أشهر قليلة، وفي عام ٧٢١هـ أفرج عنه يوم عاشوراء فخرج من القلعة، وكانت مدة اعتقاله خمسة أشهر، وثمانية عشر يوماً^(٢).

١٦ - وفي عام ٧٢٦هـ وفي النصف الأخير من شعبان أعيد اعتقال ابن تيمية بقلعة دمشق ومنع من الفتيا، وكان ذلك بسبب فتواه في السفر وإعمال المطي إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين.

- وقد بقي في السجن حتى عام ٧٢٨هـ حيث أخرج في جمادى الآخرة ما كان عند الشيخ من الكتب، والأوراق، والدواة، والقلم، ومنع من الكتب والمطالعة، وحملت كتبه في مستهل رجب إلى خزانة الكتب بالعادية الكبيرة، وكانت نحو ستين مجلداً، وأربع عشرة ربطة كراريس، فنظر القضاة والفقهاء فيها، وتفرقوها بينهم.

- وقد توفي في معتقله هذا في ليلة الاثنين، العشرين من ذي القعدة من نفس العام ٧٢٨هـ رحمه الله رحمة واسعة، ودفن بمقبرة الصوفية بدمشق^(٣)، وقد خرج في جنازته خلق كثير حتى أن المناوئين له خافوا على أنفسهم فلم يخرجوا من بيوتهم ذلك اليوم.

هذه بعض الوقائع في حياة الشيخ ابن تيمية، ومنها تبرز قوته في الحق، وإنكاره المنكر بكل ما يستطيع، وثباته في الدفاع عن العقيدة

(١) البداية والنهاية ، ٨٧/١٤ .

(٢) المصدر السابق، ٩٨، ٩٧/١٤ .

(٣) نفس المصدر ١٣٤-١٣٦، وانظر أيضاً عن ذلك كله (الأعلام العلية) للبرار ص ١١-١٥ .

الصحيحة، التي دعا إليها رسول الله ﷺ، وسار عليها أصحابه من بعده، ثم التابعون لهم بإحسان، كما قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»، كما كان ابن تيمية رحمه الله في حرصه على التمسك بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وما انتهجه الخلفاء الراشدون، ومن سار على دربهم واقتفى أثرهم، يحرص على تحذير الناس مما حذر منه رسول الله ﷺ: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».

الخاتمة:

إن شيخ الإسلام ابن تيمية، مدرسة متكاملة لطالب العلم، ولمن يريد أن يتزود من مناهله العذبة، ولئن امتحن وتصدى له خصومه، فإن الطريق الذي سار فيه، طريق يتطلب صفات خلقية في المتكسب له، وصفات خلقية في كل من يذب عن دين الله .

- فالصفات الخلقية:

تكمُن في الاستعداد التكويني الذي طبع الله النفس عليه، ويصعب على كثير من البشر مهما حاولوا القدرة عليها: تطبعاً وعملاً؛ لأنها هبة من الله جل وعلا لمن يشاء من عباده ليتحمل بها أشرف الأعمال، وأحبها إلى الله جل وعلا، وهي الدعوة إلى دينه، والدفاع عن العقيدة السليمة، والجهاد في سبيل ذلك .

وهذا الطريق مخوف بأمور كثيرة، بعضها يجعل غير المهيأ لهذا العمل استعداداً فطرياً، وتحماً من أجل رضا ربه، لا يستطيع الصمود أمام

ما يعترضه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ (١).

ومن الصفات التي يجبها الله للدعاة الصادقين: الذكاء، وقوة الحفظ، والصبر والتحمل، والشجاعة في الحق، وعدم الخوف إلا من الله جل وعلا، وصفاء الذهن، وسرعة البديهة.

. وكل صفة من هذه الصفات، تعني شيئاً في حياة العالم المؤمن بربه، وراء كونها طبعاً جبلت عليها نفسه، فإنها تترك أثراً في الآخرين، الذين يتعلمون منه في كل موقف يمر، ويستفيدون من المواقف التي جابهها، وكيف أعانته الله على التصدي لها، وأظهره الله على خصومه، كما هي سنة الله مع الداعين إليه على بصيرة، وفي المقدمة أنبياء الله، الذين تحملوا من أعدائهم ما الله به عليم، بدءاً بنوح الذي آذاه قومه، وإبراهيم الذي حاولوا إحراقه، وموسى وما ناله من بني إسرائيل، وقبل ذلك مع فرعون وأعوانه، ويوسف الذي كاد له أقرب الناس إليه وهم إخوته، حسداً وغيضاً حتى بيع كالرقيق، ثم أودع السجن، ومكث فيه بضع سنين، وعيسى الذي حاولوا قتله، ورموا أمه مريم العذراء بالفحش، ومحمد ﷺ، الذي أودى في نفسه وفي أهل بيته بقصة الإفك، وتصدى له عداوة وبغضاً عمه أبو لهب.. وهكذا من سار في هذا الطريق -في القديم والحديث- لا بد أن يلقى العنت من شياطين الإنس والجن، ولكن الصبر عاقبة المتقين، وللصبر نتائج دنيوية عاجلة بإظهار ماصبر الإنسان من أجله، وتهيئة أنصار له، وظهور دلائله حتى يدافعوا عنه، وينتصروا لمن قام عليه، وهذا من نصر الله لعباده الصادقين: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿١﴾

وهذا ما ظهرت آثاره لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ومن سار على منهجه في الدعوة إلى الله، والدفاع عن سلامة العقيدة، وحماية جناب التوحيد.

- والصفات الخُلُقِيَّة:

تبرز في طبائع يكتسبها الإنسان تأديباً وامثالاً لمصدري التشريع في دين الإسلام: كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، الَّذِينَ هما وصية النبي الكريم ﷺ لأُمته بأن يتمسكوا بهما، وأنهم لن يضلوا ماداموا حريصين عليهما تعلماً وتطبيقاً.

وقد أخبرت عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلقه ﷺ: بأن خلقه القرآن. إذ في كتاب الله الأدب الرفيع، الذي اقتبس منه ابن تيمية رحمه الله، ومن القدوة برسول الله ﷺ في سنته: القولية والفعلية والتقريرية.. القدوة الصالحة، والمنهج القويم في الدعوة إلى الله. ومن ذلك ما رصده عنه المهتمون في تعبد، وزهده، وإيثاره، وكرمه وشجاعته، وتواضعه وآدابه مع مخالفيه، وقوته في جهاده باللسان والسنان.

ولا شك أن العالم المؤثر: هو الصادق في مأخذه، والمحتسب فيما يؤديه؛ لأن الله جلت قدرته يقول وقوله الحق: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢).

- وإن الدارس لحياة شيخ الإسلام ابن تيمية ليجد في صفاته وأعماله نقاطاً تحتاج إلى دراسة وافية، ومواقف تحتاج إلى إبانة؛ لأثرها في

(١) سورة غافر، الآية ٥١.

(٢) سورة الصف، الآية ٣.

الدفاع عن الإسلام، حيث وقف رحمه الله كالعقبة الكأداء أمام السهام المشرعة، وكافح ضد الأقوال المغرضة، حتى حصص الحق، وأظهر الله الحجة، فقد كان ابن تيمية واحداً من المدافعين عن دين الله، وجعل الله في علمه نفعاً، وفي وقته بركة.. وكانت كتبه دليلاً على ذلك، تشهد بمواقفه على مر العصور، وكر الأيام والليالي.

ولئن عاش سبعة وستين عاماً من عمره، فإنه قد أوقف نفسه وعلمه، ولسانه وجهده للدفاع عن دين الإسلام ضد البدع والأهواء والجهل، ومحاربة الملل والنحل، منذ جلس مكان والده للتدريس في عام ٦٨٣هـ حتى لقي ربه. حيث أمضى خمسة وأربعين عاماً في جهاد مستمر ونضال ومكابدة: بالمناظرة والردود تارة، والمجاهدة والفتيا تارة أخرى، صابراً محتسباً.. ويندر من الرجال من يقوم بمثل ما قام به.. إذ مهما قيل عنه فإنه لن يوفى حقه، ورغم أن تلامذته وأنصاره على تتابع الأيام ومضي العصور يدافعون أقوال المغرضين التي تحاول أن تنال من الإسلام بالنيل من الرجال المدافعين عنه، وابن تيمية واحد منهم، فإن كل ما يظهر من كتبه وآثاره العلمية، ماهو إلا قذى في عيون أصحاب البدع والأهواء، وسهام موجهة لأصحاب الملل المنتمية للإسلام وهي تخالف جوهره، وتدعوا إلى طعن الإسلام في الصميم، في التجرؤ على العقيدة، والمساس بالأساس الذي حرص رسول الله ﷺ وهو يدعو قومه في مكة ثلاثة عشر عاماً على تأصيله في القلوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله. واهتم أبوبكر الصديق رضي الله عنه عند الردة بمحاربة من لم يؤد حق هذه الشهادة.

وما أسهمت به في هذه العجالة ماهو إلا جهد المقل، في إبانة مكانة هذا الرجل، ودفاعه عن الإسلام طوال حياته، واستمرار هذا الدفاع في مؤلفاته التي بقيت مرجعاً لمن يريد الدفاع عن حمى الإسلام،

حيث يجد فيها البرهان القاطع، والمناقشة الموضوعية، والرأي الصائب، مقروناً بدليله النقلى والعقلى، إذ مدرسته يتسع نطاقها، وكتبه يزداد الراغبون فيها، رغم ما يحاوله الخصوم بجهودهم في إطفاء نورها، والنيل من هذا الشيخ الجليل، إلا أن الحق هو الباقي والعلم النافع هو الذي يتابعه الناس، بما يجعل الله لصاحبه من قبول في نفوسهم، وراحة واطمئنان لما يصدر منه.

وعن مؤلفاته رحمه الله: فإنها من الكثرة بحيث لم تحصر حتى الآن، حيث عرفت عن طالبين بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، يحضّران (للماجستير) في تحقيق الصارم المسلول على شاتم الرسول، واتضحت الدراسة والترجمة لشيخ الإسلام، بأن كمّاً غفيراً من مؤلفاته لم يعرف بعد، وأن ماوقعاً عليه من مؤلفاته رحمه الله يفوق ما عرفه المهتمون بابن تيمية كثيراً. هذان الطالبان: أحدهما سعودي والآخر بنجلاديشي. فرحم الله ابن تيمية وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

وصلّى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .